الكهنوت بحسب القديس سمعان المترجم – ٤

إعداد أسرة التراث الأرثوذكسي

المخلّص كمفتاح للكهنوت

يشدد القديس سمعان على ما يمكن أن يسمّى مفتاح الكهنوت. هذا المفتاح هو يسوع. يسوع هو الإله الحقيقي، الكلمة (Λόγος) من نوس، الكائن دائماً والذي لم تكن له بداية، والذي منه كان كل شيء، الحكمة والقوة والكلمة، الذي به يوجد كل شيء. إنه سيد كل القوات، غير المادية، وغير المنظورة، الفائقة الوصف، لا يمكن فهمها، لا يمكن تصورها، المتعذر وصفها، لا يمكن المساس بها، والخالدة. ومع ذلك، فإنه هو نفسه قد صار إنساناً لجميع البشر، منظوراً، موصوفاً، سالكاً بيننا، قابلاً للموت، فقيراً، بلا مواطنة، بلا كرامة، مباعاً من نفسه، مُداناً، مشتوماً، مستهزئاً به، مُعذباً، مصلوباً. لقد تحمل كل هذا من أجل الإنسانية.

يتساءل القديس سمعان: ما الذي يمكن أن يكون أكثر قداسة؟ ما هي العلامة الأخرى للخير الأعظم التي يمكن أن توجد؟ ما الذي يمكن أن يكشف بشكل أوضح عن عمق الرحمة الإلهية؟ ما هو الشيء الآخر الذي يمكن أن يظهر بشكل أفضل مجد تواضع الله؟ لا شيء يمكن أن يفوق حقيقة أن الخالق قد صار مخلوقاً، وأن الصانع صار كائناً مصنوعاً، يتألم على أيدي المخلوقات من أجل هذه المخلوقات؛ أي أن السيد يتحمل الآلام من أيدي العبيد من أجل هؤلاء العبيد، الذين هم غير مخلصين، وقفوا إلى جانب العدو، لم يعرفوا الخالق، لم يفكروا في معرفته، لم يبحثوا عنه، ولم يسعوا إليه، بل هاجموه، نكّلوا به، جدّفوا عليه، وأخيراً أسلموه للموت. يتجلى صلاحه المذهل في ما أنجزه لهم. لقد بذل نفسه من أجلهم، تألم ومات وقام، ورفعهم جميعاً معه، وصعد إلى السماء ومجّدهم معه، ووحدّهم به كأعضاء له، راغباً في أن يظل معهم إلى الأبد غير منفصلين.

واجب الكاهن هو خدمة الرب

وفي ضوء ما قدمه الرب للبشرية يطرح القديس سمعان السؤال: ماذا يقدم الكهنة في المقابل؟ إن ديونهم له على إحساناته العظيمة لا تحصى. لذا في المقابل يجب أن يقدموا أنفسهم له بالكامل؛ يقفوا بجانبه قائلين قوله وفاعلين أعمال مذلته؛ أن يتواضعوا أمام مَن تواضع من أجلهم. يجب أن يرتعدوا من فكرة مَن هو الرب الذي هم واقفون أمامه؛ خاصة عند التفكير في أنه قائم دائماً في وسطهم بشكل غير مرئي من خلال أسرار الجسد الإلهي والدم المقدس التي تُظهر آلامه، أي أنه قُتل وسُمِّر وسفك دمه واحتمل الموت. يجب أن يرتعدوا من اقترابهم منه ورؤيته مقسماً أو موزعاً، مأكولاً، مشروباً دمه، يتقاسمه الآخرون بالنعمة بعد أن حمله الكهنة.

وهذا أيضاً ما يجعل الشاروبيم والسيرافيم يرتعدون. كل القوى السماوية والملائكية تتقهقر عندما يرون ما يحدث، ويقفون أمامه بخوف ورعدة، مدركين مخلوقيتهم وحدود طبيعتهم، وبالتالي يمجدون بدهشة مطلقة صلاح الله الذي لا يقاس. عندما يقف الكهنة أمام المسيح، فإنهم يُحاطون بأجواق الملائكة الذين يحيطون بالمذبح ويرتعدون خوفاً وهم يحاولون إدراك السر. إنهم لا يقفون هناك خاملين، لأنهم يتقبّلون شعاع النور نفسه، من مصدر النور، الذي يخرج منه سرياً دفء وجودهم الناري، الذي يتّقد بهذا النور. إن هذا النور هو الذي يعطي أيضاً الحياة والحكمة والمعرفة.

وإذ تقترب القوات غير المتجسّدة من أسرار المسيح، وهي المُتحرِّرة من كل هوى، كما يقول القديس سمعان، ينبغي للكهنة الذين هم من تراب وطين أن يقتربوا باستعداد أعظم بكثير، مملوئين رهبة وشوقاً للخدمة بأسمى الاعمال. وبما أن سبب كل هذا العمل الرائع هو محبة الله وحسب، فيجب على الكهنة أيضاً أن يقتربوا منه بمحبة من كل القلب. عليهم أولاً أن يحبوا الرب الذي يحبهم جميعاً والبشرية جمعاء، بكل قوة نفوسهم. وعليهم أن يقتربوا بصلاة حارة طالبين معونة الله حتى يتمكنوا من الخدمة في عمل لا يمكن أن يقوم به إلا هو. وعليهم أن يجتهدوا في الاتحاد معه اتحاداً كاملاً، لأنه كما قال: "بدوني لا يقدرون أن يفعلوا شيئاً" (يوحنا ١٥: ٥). وعليهم أيضاً أن يقتربوا بتواضع، آخذين في الاعتبار أن "من وضع نفسه ارتفع" (لوقا ١٤: ١١)، مقتدين بالسيد الذي اعتمد الفقر البشري ورفض تمسك الشرير العنيد بالتشامخ. إذا كان السيد قد بذل نفسه من أجل الجميع وصار كل شيء للكل، فعلى الكهنة على الأقل أن يقدموا ذواتهم له، حتى يتمكنوا من المشاركة باستحقاق ويتمتعوا حقاً بخيراته الإلهية.

على الكهنة أن يرغبوا في خدمة سر المسيح كل يوم إن أمكن، آخذين في الاعتبار مدى استحسان الرب نفسه الذي قال: "شَهْوَةً اشْتَهَيْتُ أَنْ آكُلَ هذَا الْفِصْحَ مَعَكُمْ" (لوقا ١٥:٢٢). في الواقع، أمَرَ الرب أن يُقام هذا السر باستمرار أو دون انقطاع لذكرِه. لقد قال: "اِصْنَعُوا هذَا لذكري" (ποιείτε)، وليس "اصنعوا هذا مرة واحدة فقط لذكري"(ποιήσατε) (لوقا ١٩:٢٢). يتساءل القديس سمعان: ما هو العمل الذي يمكن القيام به وهو أعظم من هذا العمل الذي يحيي ذكرَ المسيح وآلامه من أجلنا وتضحيته الدائمة عنّا؟ قال "هذا هو جسدي الذي بذل لأجلكم، أي الذي يُكسر دائماً. وهذا هو دمي الذي يُهرَق دائماً (ἐκχυνόμενον) من أجلكم" (لوقا ٣٠:٢٢)، وليس "الذي أُهرق مرة واحدة" (ἐκχυθέν)، بل الذي يُهرَق دائماً. إذاً لا يوجد عمل آخر أنفع لنا وأكثر إرضاءً لله من هذه الذبيحة، لأن هذا العمل هو عمل الله ويستتبع تجديد البشرية واستعادة شركة الله مع البشر، كما أوضح المسيح نفسه في قوله: "ليكونوا واحداً كما نحن واحد" (يوحنا ٢٢:١٧). الرب نفسه أعلن أن البشر يصبحون واحداً معه فعلياً من خلال هذا العمل بقوله: "مَن يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه" (يوحنا ٥٤:٦).